الفتح السادس :

العلاقات الدولية في القرآن[1]

(1) من كتاب «المعجزة الكبرى – القرآن» لفضيلة العالم الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة عليه رحمة الله، بتصرف بسيط جدًا استبدلنا فيه كلمة (قرآن) بكلمة (إسلام) والمعنى واحد .

-القرآن يذكر أن الإنسانية كلها أمة واحدة ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :
﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة:213] .

وإن النصوص القرآنية تدل على وحدة الإنسانية في خلقها وأصلها ، فالله تعالى يقول :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:1] .

فالرحم بين بني الإنسان موصولة ، وإذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة والجناس متباينة ، فإن الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد لا على التخالف الظاهر ، ويجب أن تبني الأمور على الجذع لا على الغصون المتفرعة .

ولقد حد الله تعالى في كتابه الكريم حدود العلاقة الإنسانية ، فقال سبحانه وتعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:13] .

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التي يجب أن تكون السائدة هي التعارف ، والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون وإقرار السلام وإحياء التراحم .

-وإذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس ، والسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف ، فلا تعارف يوجب الودة مع

الخصام والتناحر والتحارب .

ولذلك كان الأصل في علاقات الدول بعضها مع بعض السلم لا الحرب ، فالمسلم ينظر إلى ما يخالفه نظرة الود الراحم ، لا العداوة القاطعة ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 208– 209] . كما وأن ممارسة الإنسان المواطن لكافة حقوقه وواجباته في مجتمعه الوطن (دولته) يتحدد ويتوثق على تحقيقه (السلام) وانتشار الأمن داخليًا وخارجيًا .

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تكره القتل والقتال إلا أن يكون ذلك جهادًا ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:216] . وكان القتال بالجهاد لدفع الشر وتعميم الخير ، لأن الإسلام يدعو إلى الخير ، وإلى الفضيلة ، وفضيلة الإسلام إيجابية وليست – سلبية فهي تدافع الرذيلة ولا تستسلم .

وإذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فإنه لابد من دفاع الخير ، لقد أراد الإسلام للناس المحبة ، ولكن أراد إبليس لهم البغضاء ، فكان لابد من النزاع بين المحبة والبغضاء ، وإلا يدفع الشر ساد الفساد ، وعمت الرذائل ، لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:251] .

لذلك شرع الجهاد في الإسلام ،وأول الجهاد كان عقب الاعتداء وفتنة المسلمين وإيذائهم ليرجعوا عن دينهم .عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه فقال

تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:39، 40] .

ولقد قال تعالى آمر المؤمنين بالقتال : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:190- 193] .

ويقول سبحانه وتعالى مبينًا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهي بنهايته :﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾ [الأنفال:38- 40] .

فما كان الإسلام ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة . بل يستبيحها لأنهم استباحوا دم أهله ،ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ، وفتونهم في ذلك والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل .

-ولأن القرآن في مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ،والفتنة في الدين فإن الإسلام أباح الهدنة إذا أرادها المخالفون ، وحسنها ،ودعا إليها ، وقال تعالى في ذلك وقد أذن بالقتال العام :﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة:3، 4] .

وفرض القرآن هدنة إجبارية على المسلمين إن التزم بها المخالفون ، وهـي إلا يكون قتال في الأشهر الحرم ،وهي ذو القعـدة وذو الحجـة ، والمحـرم ، ورجـب الذي بين جمادى وشعبان .

وأوجب ألا يبتدئ فيها المسلمون قتالا ، إلا أن يكون امتدادا لقتال والسكوت يضر ، ولقد قال تعالى في ذلك :﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[التوبة:36] .

ولا قتال في الأشهر الحرم ، مادام المخالفون يحترمونها ، فإن انتهكوها فى يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهم أنفسهم ويقول سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:194] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:217] .

والقرآن إذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق كما تلونا من كتاب الله ، يحترم هـذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها .

-ولا يبيح القرآن القتل ولا القتال بالنسبة لمن يريد السلام ، والله تعالى يقول

في ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء:94] .

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله ، ولمن لهم به صلة ، ولذا قال تعالى :﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء:89- 91] .

إن هذا النص يدل –أولاً –على ضرورة احترام المواثيق ، وكف القتال عن أهل الميثاق والذين لهم به صلة قومية .ويكون سلمهم سلما لهم .وحربهم حربًا لهم .

ويدل ثانيًا – على أن الذين يكونون ذوي صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أي أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ولا مع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون .

ويدل ثالثًا – على أن الذين يترددون في موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين ، فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فإن لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم ،وإلا كان قتالهم حقًا بذلك الموقف البادي .

وإن هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد ، ويحترم

المحايدين ، فلا يرفع عليهم سيفًا ، فالناس على ذلك في نظر القرآن الكريم ثلاثة أقسام : محاربون للمسلمين :وهؤلاء يجب قتالهم لدر اعتدائهم . والأخذ بالنواصي والأقدام من غير هوادة .وهؤلاء هم المعتدون بالقتال و بفتنة المؤمنين كما قال تعالى :﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة:14] .

والقسم الثاني أهل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء وهؤلاء يحترم ميثاقهم ، بل يمتد احترام الميثاق إلى الذين لهم به صلة ، بحيث يكون سلمهم واحدة وحربهم واحدة .

والقسم الثالث المحايدون : الذين لا يكونون مع المؤمنين ولا مع أعدائهم واقعًا ، لأنه ما دام الأصل في العلاقات هو السلم إلا إذا حدث ما يوجب القتال ، فإن لم يكن منهم ما يوجبه فإنه لا سبيل لأحد عليهم .

وقد فهم بعض الذين لا يدرسون المسائل دارسة فاحصة مستقرية أنه لا موضع للحياد في الفقه الإسلامي ، وذلك كلام من لم يمحص الحقائق لأن القرآن الكريم جعل للحياد موضعًا ، وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم ، فقال إنه لا سبيل عليهم ، فكان الحياد ثابتًا بنص القرآن الكريم .

-وإذا تلونا بعض آيات القرآن الكريم التي فتحت باب القتال جهادًا في سبيل الله نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من الغير بطريقتين : قتل المؤمنين والاعتداء عليهم ، وإخراجهم من ديارهم ، والثاني بفتنتهم في دينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الأنفال:39] أي كل إنسان يعتنق ما يعتنق لا رقيب على قلبه إلا الله تعالى ، فلا إكراه في الدين ولا فتنة فيه .

وهنا يسأل سائل : ألم يبح القرآن القتال ، إلا دفاعًا ، أو ردًا للاعتـداء ، ولم يـبح الهجوم ؟ونقول في الجواب عن ذلك : إن القرآن صريح في أنه لا يباح القتـال مـع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن القرآن لا يبيح الهجوم على الآمنـين الذين يلقون السلام وإن ذلك حق لا ريب ؛ لأنه لا يباح الهجوم على مـن لا يعلـن العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقًا ؟ وللجواب على ذلك نقول :

إن الذي استنبط من صريح الآيات التي تلوناها أننا لا نحارب إلا مـن اعتـدى علينا أو فتننا عن ديننا ،ومن الفتنة في الدين أن يمنع المتدين من إقامة شـعائر دينـه وأن يحال بين الحق والدعوة إليه .

إنه في هذا الحال يكون القتال ، ولكن يزاد عليها إذا قامت العداوة التي ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم في ديـارهم أو فتنـتهم في دينهم ، فإنه عندئذ يتعين قتال العدو المترصد الذي لا يـألو بـأن ينتظـر المؤمنـون حتى يهاجمهم الأعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صـريحة لا إيهـام فيهـا ، إنـه كما قال بطل الجهاد علي بن أبي طالب : (ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا) .

وبذلك نفسر قولنا إن المؤمنين ما قاتلوا إلا ردًا للاعتداء بمثله أو توقفه ، ولقد تلونا الآيات التي تنهي عن قتل من لا يعتدي علينا ، ومن يعتزل قتالنا ،ومن يلقـي علينا السلام .

وإذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه إلا للاستعداد لمثله ، كان القتال مشروعًا بكل ضروبه ، لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مأمنهم ، وبالقصد إلى مكامنهم ،ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة:5–10] .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:13– 15] .

وترى من هذا النص أن الأساس هو الابتداء بالاعتداء . فإذا ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعًا وهجومًا ، بل إن خير الدفاع ما كان هجومًا . ولا سبيل لإنهاء القتال مع المعتدين إلا بإحدى خصال ثلاث : إما الإسلام ، وأن يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وإلا فإنه ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال:58] . وإما الاستسلام . وأن يخضعوا لأهل الإيمان .

وق قـال تعـالى في ذلـك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد 7، 8] .

وننهى من هذا التتبع إلى حقيقتين ثابتتين : إحداهما – أن محاربة المؤمنين لأي قوم لا تكون إلا عند اعتدائهم بإخراج المسلمين من ديارهم ، أو إيذائهم في دينهم ،ومن الإيذاء أن يمنع الدعاة إلى الإيمان من أن يلاقوا الشعوب ،ويعرفوهم بالحق ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لأنه لا إكراه في الدين ، ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل والغي من الرشد ،وذلك لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[البقرة:256] .

الحقيقة الثانية أنه إذا كان الاعتداء بأي ضرب من ضروبه ، فإن باب الجهاد يُفتح دفاعًا وهجومًا وغزوًا والتقاء ، لا يمنع مانع إلا مالا توجبه الفضيلة .

وقد فهم بعض الناس أن القتال في الإسلام لا يكون إلا دفاعًا . ولا يكون هجومًا وذلك خطأ ، والحق أن القتال لا يكون لقوم غلا إذا اعتدوا ، فإن كان الاعتداء حل قتالهم دفاعًا وهجومًا ، وهم في الحالين المعتدون إلا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا .

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة إلى الإسلام مفتوحًا بعد اعتداء من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون غلا بعد أن يرسل المؤمنون دعاة للإيمان ، فإن أجاب بعضهم ، ولم يضطهد في اعتقاده فإنه لا قتال ، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .وإن اضطهد كان ذلك هو الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال ردًا للاعتداء بمثله .

وقد جاء الإسلام في عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعاياهم فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ،وما أرسل النبيﷺ الجيوش إلى الشام إلا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا في الشام وقتلوهم ،وما حارب الذين جاءوا من بعد الفرس إلا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبي ﷺ .

ويلاحظ من يتول آيات الأمر بالقتال أن فيها النهي عن الاعتداء . فالله تعالى يقول : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[البقرة:19] .

والاعتداء المنهي عنه قسمان –أحدهما – الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين وهم الذين ما جعل الله عليه سبيلا .

ثانيهما – الاعتداء في القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلا الشيوخ والنساء والذرية فإن هذا اعتداء في القتال منهي عنه ولذلك يقول الله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:194] .

وإن من مقتضى هذه التقوى إلا يقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها .

ويلاحظ أن القتال في الماضي كان لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس قائمة .كأنه لا حرب والسلام قائم .

إنما الحرب لمن يحادون الله ورسوله ، إذ يقول الله تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:22] .

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا الدعاوة وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

وما عدا هؤلاء فإن السلم هو العلاقة والمودة إن وجدت مقتضياتها .وقد نص القرآن الكريم عن ذلك ، فقال تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة:8 ، 9] .

فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء إذ عسى أن تعود الصلة حتى بين الأعداء

كما يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة:7] .

القرآن والعلاقة في السلم والحرب

المستخلص من القرآن العظيم في آياته يتلخص في أن القرآن وهو دستور الدولة المسلمة يدعو إلى إقامة التعايش السلمي مع كل دولة لا تعتدي أو تؤذي أو تهاجم فكل من لم يقاتل المسلمين في دينهم ولم يخرجهم من أرضهم أو وطنهم ولم يظاهر غير على ذلك فله من اجل القرآن المودة الخالصة والتعاون الوثيق وعلى العكس فكل من يقاتل المسلمين في دينهم ويخرجهم من أرضهم ووطنهم أو يظاهر على ذلك فليس له من أهل القرآن مودة أو صداقة أو تعاون ، والقرآن واضح في ذلك حين يقول :﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة:8 ، 9] . أما الهيئات الدولية والدول المرتبطة بمواثيق ومعاهدات فيجب حسب القرآن العظيم احترام المواثيق والوفاء بالعهود وتطبيق أحكام المعاهدات طالما احترمها وطبقها الآخرون ، والقرآن يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾[المائدة:1] . ويقول :﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:34] .

وهو بذلك يحقق العدل في التعامل ويحقق السلام في واقع المعاملات ويحقق الأمن في العلاقات و الاستقرار في الحياة ، فالمهم هو سلوك الآخرين وماذا يريدون أو يضمرون والقرآن يقول لرسول الله :﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال:61] .

وإن أول آية نزلت من القرآن أمره بالقتال والجهاد كانت : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج:39] فقد كان المظلومين والمضطهدون ممنوعون من القتال لدفع الظلم دفاعًا عن أنفسهم حتى جاءهم الإذن من الله الذي هو سبحانه على نصرهم لقدير بعد أن فشا فيهم الظلم واشتدت عليهم وطأته ، كما وأننا حين نتتبع غزوات رسول الله ﷺ لا نجده قد خرج في واحدة منها بادئًا بقتال .

فإن النبي ﷺ قاتل الكفار الذين اعتدوا عليه وعلى أصحابه وأخرجوهم من ديارهم والسبب في القتال ليس أنهم كفار وإنما هو كونهم معتدين ومن هنا فإن الأصل في العلاقات هو وفقًا للقرآن هو السلم وحتى يكون سبب وقوع الحرب وهو الاعتداء ولذلك أيضًا كانت شرعية عقد المعاهدات المؤقتة والدائمة وهي واجبة الوفاء . أي أن القرآن جعل قتال المسلمين للكفار هو الاعتداء والعدوان وليس لمجرد الخلاف الديني ، ولذل يقول القرآن العظيم : [الأنفال:61] .إن الإسلام يتعاون مع الملل والنحل الأخرى وحقائق الوحي القرآني والهدي النبوي ؟؟؟؟ على قيام المعاملات بين المسلمين والآخرين على أسس المودة والبر والعدل والرحمة والتسامح.